10me Année No. 486

Lundi - 26 - 10 - 1942

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٨٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٦ شوال سنة ١٣٦١ — الموافق ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهرس

الرايـــــة المصرية

لكاتب كبير

هى راية الفكر والرأى والبيان ، وهى أول هبة منّ بها الوهاب على هذه البلاد ، ولعلها أول هبة جاد بها الله على هذا الوجود

مصر بطبيعة الفطرة أمة سليمة الروح والوجدان ، ومن أجل هذا المعنى كان فقراؤها أغنى من الأغنياء ، وكان جهلاؤها أعلم من العلماء ، فما عرف الناس فى شرق ولا غرب بلداً يعيش على المواهب الطبيعية كما يعيش هذا البلد ، ولا سجّل التاريخ أمجاداً أشرف من أمجاد هذا البلد ، ولا كان فى الدنيا نهرٌ أوفى وأكرم من نهرها الفياض بمعانى الحسب والثروة والشعر والخيال

عاصرت المدنيةُ المصرية مدنيات كثيرة فى القديم والحديث ، فهل انهزمتْ أمام إحدى المدنيات ؟ وهل خضعت لعبودية الروح فى أى وقت ، وإن جار الزمن فنال من استقلالها السياسى فى بعض العهود ؟

صنع الدهر بمصر ما صنع فى عهود الطغيان من الوجهة

السياسة ، ولكن الدهر عجز عن غزوها فى الميادين الأدبية والروحية والعقلية ، فكانت آية الآيات فى سموّ الفكر والرأى والبيان

إن مصر لم تخضع ولن تخضع لأية سيطرة تعتمد على الاستبداد ، وهل كان من العبث أن تُعرف مقابر من سيطروا على هذه البلاد ، ثم تختفى مقبرة الإسكندر المقدونى ، فلم يهتد إليها منقّب ولا باحث ، مع أن صاحبها كان من أعاظم الرجال ؟

كانت مصر لأبنائها ، ولن تكون إلا لأبنائها ، وستمضى أجيال وأجيال ، وأزمان وأزمان ، قبل أن يجوز فى الوهم أن الذاتية المصرية معرّضة لاستعباد الجهل والبغى والطغيان .

فى عصور الجاهلية الجهلاء كانت مصر مناراً يهدى اليونان والرومان ، وفى عصر الإسلام كانت ملاذاً للعلوم الإسلامية ، والحضارة العربية ، وفى العصر الحديث كانت مصر درعاً يقى الشرق من طغيان الغرب ، وستظل مصر إلى الأبد مصدر النور ومنبع الإشراق .

أكتب هذا وفى قلبى أشجان تعجز عن إثارة دموعى ، فقد قيل وقيل إن أيام الحرب تصدّ العقول عن الرأى ، وتمنع الأقلام من البيان

هيهات ثم هيهات ، فالينبوع القاهر يفتك بالحواجز والأسداد ، والقلم العارم يصنع ما يصنع النورُ فى تبديد الظلمات

لن تضام مصر ، ولن يضام أهلوها ، ولن تجف أقلامها ، ولن يكون لها بين المظلومين مكان

لا أقول إن مصر باقية ما بقىَ النيل ، ولكنى أقول إنها باقية ما بقى الوجود

مصر شرّعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأى والبيان وستظل بإذن الله مصدر الفكر والرأى والبيان

قال الزعيم النبيل مصطفى كامل :

« لو لم أكن مصريًا لتمنيت أن أكون مصريًا »

وأقول إنى أكره الافتراض الذى يبيح التخيل بأنى لم أكن من المصريين

إن الظلم الذى يلاحقنى فى وطنى لا ينسينى جمال وطنى لأنه عندى أعزّ من روحى ونفسى

أنا أرفع الراية المصرية حيثما توجهت ، ولن تضام مصر ولها أسنذة ودروع من أبنائها الأوفياء

وكم تمنيت أن أكون أول من هتف بهذه الآراء ، ليكون لى فضل الابتكار والإبداع ، ولكنى أشرح آراء جادت بها عقول كان لها فضل السبق فى إحياء المواهب المصرية والعربية والإسلامية ، من أمثال : أحمد زكى باشا ، ومحمد بك مسعود ، والشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين

هى آراء بشّر بها ودعا إليها أولئك الجهابذة الأعلام ، ولكنها حلّت من نفسى محل اليقين ، فصرت أهتف بها هتاف المبدع الأصيل ، والمريد الصادق لا يقل إيماناً عن أساتذته النبلاء

نحن لا نعمل لليوم الحاضر وحده ، وإنما نعمل للمستقبل القريب والبعيد ، وستظل سواعدنا قوية ولو احتواها الفناء

نحن لا نهاب الرجعية الممثلة فى أوهام الفانين ، ولا نهاب مصالحنا وهى جديرة بأن تُهاب ، وإنما نهاب الحق ، ونراعى الوطن ، ونخاف الله ، وتلك معانٍ توجب أن نظل أوفياء لكرامة العقل ، وسماحة الروح ، وشجاعة الوجدان

سنقف كراماً حيث يقفنا الواجب ، ولن نرضى أبداً بأن يعرّض الفكر فى بلادنا للخمود

وستذكر مصر طائعة أو كارهة أن فى أبنائها من وفوا بالعهد ، فى أيام ألهتْ جماهير الناس من الفكر والرأى والبيان ...

« يتبع »

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

١ ـ حديث عيسى بن هشام

للدكتور زكي مبـــارك

فاتحة البحث — فوضى مزعجة — جنتمكان — الأمير — سبب الفوضى — تاريخ الكتاب — المويلحي الكبير والمويلحي الصغير — أصل الشبهة — سجين الفاقة والبؤس — الأديب المضطهد لنسبه وغناه — عصارة الشدائد — أغراض المؤلف — عقلية المويلحي — طبعات الكتاب

فاتحة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ...

أما بعد ، فهذا بحث في كتاب « حديث عيسى بن هشام » المقرر للامتحان التحريري في مسابقة الأدب العربي ، والرجوَ — إذا وفّق الله — أن يكون فيه ضمانة مؤكدة للنجاح في ذلك الامتحان ، على شرط أن ينظر الطلبة في الكتاب نظرة جدية بعد قراءة هذا البحث ، لأن الغرض من أمثال هذه البحوث هو التوجيه إلى الاطلاع عن بصيرة ويقين . ويخطئ من يظن أننا ننوب عنه في قراءة ما يريد من الكتب ، وفي استخلاص ما يشاء من الحقائق ، ليواجه الامتحان وهو لا يملك غير ملاحظات لم يسهر له فيها جفن ، ولم يقلق وساد !

هذه أبحاث نقدية ، والنقد فنٌّ من التوجيه ، وليس ضرباً من التحصيل ؛ فليفهم أولئك الشبان هذا المعنى ، وليقرأوا الكتب التي ننقدها قراءة فهم واستقصاء ، بعد أن يستوعبوا ما فيها من المعاني والأغراض

فوضى مزعجة

هي الفوضى المحيطة بكتاب « حديث عيسى بن هشام » ، فما يكاد القارئ يعرف في أيّ عام أُلّف ، ولا يكاد يتصور أيّ مجتمع يصوّر ، لولا عبارات تنطق بأنه كُتب بعد موت « جنتمكان محمد على » : الجد الأكبر للملك فاروق ، رحم الله الجد ، وحرس الحفيد ...

جنتمكان

وما « جنتمكان » التي ترِد في الكتاب من صفحة إلى صفحات ؟

لقد استبهمتْ عليَّ أولَ الأمر ، وعجزت عن الاهتداء إلى نطقها الصحيح ، ومدلولها الأصيل ، ثم عرفت بعد لأي أنها كلمة تركية رُكّبتْ تركيباً مزجيّاً من كلمتين عربيتين : هما « جَنّة » و « مكان » ؛ وإذن يكون : « جَنّتْمَكان » هو ساكن الجنان ؛ وهي العبارة التي تذكرها الجرائد حين تتحدث عن كبار الأسلاف من البيت المالك ؛ والظاهر أن « جَنّتْمَكان » كانت مفهومة عند تأليف الكتاب ، فتركها المؤلف بلا شرح ؛ وهل كان يخطر في باله أن معناها سيغيب عن رجل في مثل حالي ؟ !

اللهمَّ إني أسألك السلامة من الجهل ، فهو أخطر الأعداء !

الأمير

الألقاب نُظّمت في هذا العهد بطريقة واضحة الرسوم، فصرنا نعرف الفروق بين طبقة الأمراء وطبقة النبلاء من الوجهة الرسمية فلنذكر أن كلمة « أمير » في عهد مؤلف الكتاب لم تكن تدل حتماً على أن الموصوف بها من أعضاء البيت المالك ، وإنما كان الأمير هو الغنيُّ ، ولو كان أجداده أبعد الناس من دماء الملوك

حدثني الشاعر عبد المحسن الكاظمي قال : كان محمود سامي البارودي أميراً بكل ما لهذه الكلمة من المعاني

وقد توهمت في بعض ما سطرت من البحوث أن « إمارة » البارودي كانت رسمية أو شبه رسمية ، لأن أجداده كانوا من أمراء المماليك ، فالآن أعرف أن الإمارة في مصر كانت من نصيب أصحاب الثراء في جميع الأحوال[1]

والكاظميُّ عراقيٌّ استمصر ، وقد هال الرصافي أن يبكيه العراقيون بعد الموت فقال :

فيا عجباً بكتْكَ وأنت مَيْتٌ ... بلادٌ ضيَّعتْك وأنت حيٌّ

سبب الفوضى

وسبب الفوضى التي يعانيها من يقرأ « حديث عيسى ابن هشام » أنه خلا خلوّاً فظيعاً من التواريخ ، وهل يوجد

(١) ومع ذلك وردت كلمة « أمير » في ص ٢٣٠ في سياق يدل على أن المؤلف يقصد أحد المنتسبين إلى البيت المالك

أعجب من أن تكون رسالة السيد جمال الدين الأفغانى إلى المويلحى بدون تاريخ ؟

أستغفر الله ، فالنص الزنكوغرافى ينص على أنها فى ١٩ ربيع الثانى

ولكن من أى عام هذا الربيع الثانى ، يا سيد جمال الدين ؟

تاريخ الكتاب

يقول المؤلف إن كتابه مجوعة مقالات نشرت فى « مصباح الشرق » ؛ ومن السهل على المقيم بالقاهرة أن يراجع تلك الجريدة فى دار الكتب المصرية ، فما الذى يصنع المقيم بمدينة دمشق أو مدينة بغداد ؟

فى الصفحة الرابعة والثمانين نجد المؤلف يقول : « إنها أبدع نكتة فى آخر القرن » فنعرف أن الكتاب ألف فى آخر القرن التاسع عشر للميلاد

المويلحى الكبير والمويلحى الصغير

عرفت اللغة العربية فى العهد القريب كاتبين عظيمين باسم المويلحى ، ثانيهما محمد وأولهما إبراهيم ، وكانت لإبراهيم مخاطرات سياسية دونها على صفحات « الرسالة » أحد أحفاده منذ سنين ، فليرجع إلى تلك الصفحات من شاء ، عساه يعرف كيف كانت مناورات ذلك الكاتب فى ختل السلطان عبد الحميد

والمهمّ هو أن أسجّل أن إبراهيم كان الكاتب الكاتب ، وإليه تُنسب بالباطل أو بالحق رسائل ابنه محمد فى « حديث عيسى بن هشام » ، فقد مرّت أزمان والناس يعتقدون أن محمداً ابن أبيه فى كل شيء ، حتى ذلك الحديث

أصل الشبهة

ولهذه الشبهة أصل ، فقد سكت محمدٌ بعد موت أبيه سكوت المُريب ، فتقوّل الناس عليه الأقاويل ، وظنوا أدبه من الصنف المدخول .

وقوّى الشبهة أنه استُغضِبَ فلم يغضب ، ولو كانت التهمة باطلة لثار وهاج ، وفعل بخصومه الأفاعيل .

سجين الفاقة والبؤس

فى سنة ١٩٢٤ تفضل الدكتور منصور بك فهمي فوصلني بالمؤرخ الكبير أحمد باشا شفيق ، وكانت مهمتى أن أدوّن مذكرات شفيق باشا بأسلوب مقبول . ثم جاء رمضان فدعانى الباشا لطعام الفطور مع جماعة منهم الكاتب المعظم محمد بك المويلحى ، فكيف رأيت المويلحى ؟

كان يلبس الردنجوت من غير موجب ، وقد قضى الوقت كله فى صمت ، فصح عندى أن أدبه لا يخلو من تزييف

وفى صبيحة اليوم التالى واجهت أحمد باشا شفيق برأيى فى محمد بك المويلحى ، فسكت لحظة ثم قال : هل تعرف كيف يعيش هذا الرجل وكان ابن ذوات ؟

— كيف يعيش ؟

— أتجهل كيف يعيش ؟

— وهل أعلم الغيب ؟

— إن محمد بك المويلحى يقضى الأيام والأعوام وليس له زاد غير الخبز والملح والماء ، فهو أعظم من داوى الفقر بالتجمل فى هذا الزمان

— أيعيش المويلحى هذا العيش ؟

— هو غنىٌّ افتقر ، ولا تصلح هذه الهامة العالية لاستجداء الناس ، ولو كانوا من الأمراء والملوك

الأديب المضطهد لنسبه وغناه

نشأ محمد المويلحى نشأة المياسير ، فكان من حقه أن يستكبر على الناس كما يستكبر من يكون فى مثل غناه ، ولكن سليقته الأدبية فرضت عليه أن يدرس جميع الطبقات الاجتماعية بلا تفريق بين المرتفعين والمتضعين ، فكان يغشى أماكن السوقة كما يغشى أماكن الأمراء(١)

وفى ذات ليلة تطاول عليه سفيه فى إحدى الحانات فضربه كفًّا ، كالذى يقع فى أماكن الشبهات والظنون

فكيف كانت العواقب ؟

أقام السخفاء من أدباء مصر موسماً سموه « عام الكف » عليهم غضبات صاحب الجبروت .

ومن العجب العاجب ، والسخف الساخف ، أن يكون شاعرنا إسماعيل باشا صبرى أحد المشتركين فى الشماتة بالأستاذ محمد المويلحى مع أنه مدح الشيخ أحمد الزين !

فيا بنى آدم من أهل هذه البلاد ، متى تعقلون ؟

متى ؟ ثم متى ؟

(١) فى الكتاب شواهد كثيرة على أن المويلحى كان يرتاد مواطن الشبهات ليدرس أخلاق الناس

عصارة الشدائد

تصدُر عنى من وقت إلى وقت آراء فى غاية من الغرابة والشذوذ فى نظر الناس ، ثم تجيء الشواهد التى تؤكد أنى لم أكن من المخطئين

ومن آرائى الشاذة فى نظر الناس قولى بأن الأديب الغنىّ أقدر على فهم الحياة من الأديب الفقير ، وأشد إدراكاً لما فى الحياة من مكاره وصعاب

وكان ذلك رأيى لأنى أومن بأن الأغنياء تقع فى حيواتهم تعقيدات لا يعرفها الفقراء ، وما يسيغ ذهنى فكرة القول بأن الفقير يدرك معنى البؤس على الوجه الصحيح ، لأن الفقر عه من مواجهة «الخطوب الثقال» ، وقد نعرف بعد حين أن الفقراء هم الأغنياء

أقول هذا وقد صح عندى أن براعة المويلحى فى كتابه أخذت مددَها الأصيل من اضطلاعه بمتاعب الحياة فى وقت مبكر ، مع الاعتراف بأنه كان لا يزال فى رعاية أبيه ، ولم يكن عرف طعم القوت الدائم بالخبز والملح والماء

ومن حظ الأدب أن المويلحى لم يؤجل تسطير ملاحظاته إلى أن يشرب الصُّبابة من كأس البؤس ، فما يستطيع بائس معدم أن يتبيّن ما يريد أن يقول

كان المويلحى فى عافية حين سطر تلك الأحاديث ، ثم عمّ الغمّ وطمّ ، فآثر الانعزال إلى آخر الزمان

لم يعرف الأدباء الفارغون من أصحاب الجرائد الهزلية أن الأديب الحق لا يتوقّد خاطره فى كل حين ، ولم يفهموا أن البلبل لا يغرّد إلا وهو جذلان ، فعدّوا سكوت المويلحى بعد موت أبيه دليلاً على أن أدبه من ضروب الأدب المنحول ، ولو عقلوا لفهموا أن الرجل أصابته بموت أبيه كوارث معاشية تزلزل رواسى الجبال

إلى مَنْ يتوجّه المويلحى وقد عادَى جميع الطبقات باسم الأدب والبيان ؟

وهل كان خصماؤه قبل عشرين سنة إلا كتَبَة مأجورين يأكلون النار طائعين أو كارهين ؟

لقد مات المويلحى وظلوا أحياء ، فمن الحىُّ ومن الميت ؟

تبارك من جعل الأدب الصحيح مهر الخلود !

أغراض المؤلف

للمويلحى من كتابه أغراض أدبية واجتماعية وتاريخية ، فهو يريد أولاً أن يقدم للأدب صوراً من البيان الوهّاج ، وقد فاز من هذه الناحية فوزاً مبيناً ، بغض النظر عما يقع من تكلف السجع فى بعض الأحايين . ولا جدال فى احتواء هذا الكتاب على صفحات يتمنّاها كبار الكاتبين

وهو يريد ثانياً أن يصور المجتمع ، فهل أفلح فى تصوير المجتمع ؟

لقد وصل إلى أبعد الغايات فى تصوير الطبقات العالية من وزراء وعلماء وتجار وقضاة ومحامين وأعيان وأوشاب ، وللأوشاب فى مصر مكان ، ولكنه غفل عن تصوير الطبقة التى تمدّ الحياة المصرية بالغذاء السليم من الآفات ، وهى طبقة الزراع والصناع .

وعذُره فى هذه الغفلة واضح ، لأنه عاش عيشة لا تمكنه من التعرف إلى هؤلاء الناس

أما ملاحظاته التاريخية فهى من التفاهة بمكان !

عقلية المويلحى

عقلية هذا الرجل سليمة إلى أبعد الحدود ، ولكنها تجود بالمضحكات فى بعض الأحيان ، كأن يتحدث عن سور بابل فيقول : هو عدة أسوار متداخلة بعضها فى بعض يتسع محيطها للاحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً ، وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مئة باب من حديد[1]

يقول المويلحى هذا الكلام المضحك مع أنه نص على أن حدائق بابل المعلقة كانت فى اتساع أربعين فداناً ، ومع أن من المستحيل أن تسمح ثروة العراق بإقامة سور له ذلك الطول وذلك العرض ، وفى محيط يسع سبع مدائن مثل مدينة باريس ، باريس التى يسكنها نحو خمسة ملايين ، مع اتساع الشوارع والميادين ، ومع ابتلاع نهر السين

طبعات الكتاب

ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٩٠٧ ، وظهرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ ، والطبعة الأخيرة هى الرابعة مع الرحلة الثانية ، وهى موضوع الدرس ، وعليها المعوّل فى الامتحان ، وقد عُنيَ المؤلف بتنقيحها قبل أن ينتقل إلى عالم الخلود

وكلمتى هذه تمهيدٌ وجيز يحتاج إليه المتسابقون بعض الاحتياج أو كل الاحتياج ، أما البحث المقبل فأنا أرجو أن يكون عند ما أريد ، إن تفضل الله بالتوفيق .

زكى مبارك

(١) ص ٤٠٣

عودة إلى تحفة الأستاذ على طه

أرواح وأشباح

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ١ —

اطلع الأستاذ توحيد بك على نقد فى « الثقافة » لـ « أرواح و أشباح » ، فحرك ذلك نشاطه لاستئناف البحث فى هذه الملحمة الرفيعة تحليلا لمغزى القصيدة ، وتعقيباً على رأى الناقد . (الرسالة)

هى الأرواح والأشباح الماثلة فى البشر أجمعين ، ويمثّلها أبطال يحييهم فى المخيّلة فن الشاعر المبتكر فى تحفته العربية . ولا بأس بالعودة إلى الحديث فى موضوعها : فإن التحف الفائقة من شأنها أن تحرّك الخواطر والخوالج فى كل وقت على الدهر ، فيكثر الكلام عليها من كل وجه . فلننظر المرة فيما قدم إلينا هذا الشاعر المفلق من صنيع كما هو :

هو قصة الروح والجسد فى محاورة مدارها السر فى تجاذب الرجل والمرأة ، وأثر الغريزة فى الفن بينهما . وهذا موضوع جدى بعيد الغور ، أحسن معالجته شاعر مثقّف ، وبناه على أساس متين من وجدانيات وفكر جديرة بالنظر

والفكرة الرئيسية فى الموضوع ، هى أن بين الروح والجسد تفاعلاً ، وبين القيم الأخلاقية والغريزة تدافعاً ؛ وأن هذا التفاعل وهذا التدافع هما العاملان الخفيان المسيّران للحياة البشرية . وهذه الفكرة الأصلية مستحكمة فى صلب الصنيع ، مرفرفة على كلامه من أوله إلى آخره ؛ وهى لذلك أس الوحدة الجامعة لأطرافه ، يؤيدها سائر الأسباب المتممة لهذه الوحدة المتينة (١).

أما خلاصة المحاورة فيما يتعلق بأثر الغريزة فى الفن بين الرجل والمرأة ، فهى أن المرأة تلهم الفنان بجمالها الجسدى وجمالها الروحى فيراها دمية صُوّرتْ من نقاء ، ويرى فيها ما لا تحدّ النُّهى ، كأنها معنى وراء الخيال . غير أن الشهوة الجائعة فيها ، بل الغريزة العاتية فيهما ، توقعهما فى الخطيئة ؛ فالفنان يستلهم الشرّ سحرَ البيان ، وتصير الفنون رمز الآثام . وتلك حال الآدمية ، يريد الفن أن يعلو بها ، فيقعدها الجسد بغرائزه . على أن أهل الفن منهم من يحتمل سعير الحياة فتقوى روحه ، ومنهم من يعشو بنور هذا السعير فتغلبه الغريزة :

شفت غُلّة الفن حتى ارتوى ... وإن دنس الفن من طهرها (١)
خطيئتها قصة الملهمين ... وإغراؤها الفرح المفتقَد
بأرواحهم يرتقون الخلود ... على سُلّم من متاع الجسد
وما الفن إلا سعير الحياة ... ونورتها فى محيط الأبد
لهيب إذا الروح مرّت به ... تضاعفتْ الروح فى ناره
يُطيق القوى لظى جمره ... ويعشو الضعيف بأنواره
وما الآدمية بنت السماء ... ولكنها بنت ماء وطين
يريد لها الفن أفق النجوم ... فيقعدها جسم عبدٍ سجين

كلام فى الفن والفنانين ، تتحدث به فى السماء أرواح أسماؤها إغريقية مستعارة من الأساطير ؛ ولكن هذه الأرواح رموز إلى الآدميين ؛ والفنانون بشرٌ على كل حال ؛ فحديث الغريزة العاملة فيهم يعنى معهم سائر البشر . ولذا جاء الكلام فى الفن وسيلة فنية شعرية إلى إبداع ملحمة فى شأن الإنسانية منذ نشأتها ، ومن أقدم عصور اليونان ، ومن أيام السامرى وبنى إسرائيل وموسى فى أرض مدين ؛ وتمنى البيض وغيرهم ، حتى زنوج هاواى ؛ وتقص طبيعة البشر وأثر الغريزة فى الرجال والنساء طرًّا :

نعم ، أنت هن... نعم ،ما أرى؟ ... أرى الكل فى امرأة واحده
لقد فتنت فيك أرواحهن ... وها أنت أيتها الخالده
أأبغض « حواء » وهى التى ... عرفتُ الحنان لها والرضى ؟
ورثت هواها فرمت الحياة ... وحبّب لى العالم المبغضا
هو الرجل القلب ، لا غيره ... فأودعنه القبس المضرما
إذا ما اقتحمتن هذا السياج ... فقد خضع الكون واستسلما

هنالك حيث تشبّ الحياة [على الأرض]
وحيث الوجود جنين العدم
وحيث الطريدان شجّا الكؤوس
وعجّا صبابتها من قِدم

وما أخطأ الطيف ألوانه [فى الزنوج]
ولكنه اللهب الأحمر
لهم أعينٌ تتملى الجمال ... وأفئدة بالهوى تشعر

(١) حالت ضرورة الايجاز دون زيادة بيان هنا فى شأن هذه الوحدة حصوصا بعد مقالة سابقة فى العدد ٤٦٦ من الرسالة

(١) الأبيات المختارة فى هذه المقالة وما يتبعها فى العدد الآتى منقولة بلا محافظة على ترتيبها فى الملحمة

تفرَّد فهمُ بالخفاء   وصيغ بفطرتهم واتسم
له بأس « مانا » وإيحاؤه   إذا اضطربت روحه بالألم
ورقة « هاواى » فى شدوها   إذا جاش خاطرها بالنغم
هم الناس لا يعشقون الخيال   إذا لم يكن حافزاً للطماع
هم الناس لا يعبدون الجمال   إذا لم يكن نُهزة للمتاع
هم الناس لا يألفون الحياة   إذا لم تكن معرضاً للخداع

هذا ، إلى أن المقدمة الشعرية والملحمة ذاتها تدلان دلالة واضحة على أن الشاعر قد طافت خواطره المجنحة فى أحوال البشرية منذ أقدم القدم إلى حاضرها ؛ وأن مخيِّلته الخصبة ، وقلبه الفياض ، قد تأثرا من عقائد راسخة فى نفسه ... نفسه المستنيرة بأدب جمّ وبمأثور فى الإنسانية ؛ وأن هذه النفس الحية ، عرتها هِزَّة الإلهام ، فتبعَّث منها هذا الشعر الصادق المشرق الآسر :

إلى قمــــة الزمن الغـــابر   [من المقدمة الشعرية]
سمت ربة الشـعر بالشــاعر
يشق الأثير صــدى عابرا   وروحاً مجنَّحة الخــاطر
وأوفت على عالَم لم يكن   غريباً على أمسهـا الدابر
نمت فيه بين بنات السديم   وشبّت مع الفلك الدائر
مشاهد شتى وعتهــا العقول   وغابت صُواها عن الناظر
وجود حوى الروح قبل الوجود   وماض تمثّــل فى حاضر
تبدّى لهـا فانجلى شكلها   وثابت إلى وعيهـا الذاكر
وأصغت فرّت على سمعهـا   رواية ميــلادها الغـابر

***

على مذبح الحب من قلبها   سراج يسبِّــح مَن لألأه
وتمشى الحيــاة على نوره   وما نوره غير عين امرأه
هوالحب؟.. لا.. بل نداءالحياة   تلبيه أجســادنا الظامئه
يخفّ دمي لصــداه الحبيب   وتدفعنى القــدرة الهـازئه
قـــلوب تلذّ بتعذيبها   غرائز عانيـــة عارمه
صحت من خُمار ملذاتها   تعنِّــف أهواءها الآثمــه
هو ابن السماء . ولـكنه   من النقص تركيبه والتمام
صناع الطبيعة بل صنعها   فمنا دمامته والوسام
يسفّ إلى حيث لا ينتهى   ويسمو إلى قمـــة لا ترام
ويسـق بكأس إلاهيــة   مرنَّقة بالهــوى والأثام

***

غـــدا تدرج الروح فى طيفها   [من الخاتمة]
وما الطيف للروح إلا قنـــاع
سترقد فى غورها الذكريات   وتوقظهن السنون السراع
وتمثى لحاضرها فى الحيــاة   بمصباح ماض خفى الشعاع
وكم نبأة كالحديث الجديد   وما هو إلا القـديم السماع
من الخـــير والشر إلهامها   مقادير تجرى بهن البراع

ما أحب هذا الشعر وأسرعه إلى القلب واللب ! وما أنفسه فى الأدب ! ثم إنه قريب إلى المعقول على نظريتى الحياة في الفلسفة العلمية : النظرية الروحية والنظرية الآلية !

فقد فطر الإنسان على غريزتين أصليتين ، تعمل إحداهما على حفظ الفرد وتعمل الأخرى على حفظ النوع ، وهذه هي علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة ، ولو بطل عملها لانقرض النوع

والجسد مكمن الغريزة ؛ أما الروح فهي مجمع الملكات السامية من المخيلة والشعور أو الوجدان والعقل والإرادة ؛ وهى مبتدعة القيم الأخلاقية العالية والشعر وجميع الفنون

والإنسان يسف بغرائزه الحيوانية ، ويسمو بملكاته الروحية ؛ وقد تدرج بها إلى إنسانيته الحاضرة فى مراقى أطوار غابت معالمها فى غياهب الدهارير . ولاحظ الآدمي فى حين من الدهر طواه الماضى السحيق أن هذه الملكات التى يتفوق بها على الحيوان تذهب مع الروح ، وأن من فارقته روحه بقى جثة هامدة من اللحم والدم لا تلبث أن تنحل ؛ ولذا قيل إن الروح هى الأصل السماوى ، وما الجسد إلا شبح تقمصته عند هبوطها من العالم العلوى

والملكات الروحية تؤثر فى الجسد وغرائزه ، كما أنها تتأثر منها . وهــذا التفاعل مختلف الأثر باختلاف عوامل شتى ، كالوراثة والعادة والمعيشة والبيئة ؛ مختلف الأثر فى كيان كل شخصية ، وفى شعورها باللذة والألم ؛ وهذان هما سبب الفضيلة والخير ، والرذيلة والشر جميعاً ؛ والفضائل والرذائل خلال فى البشر على نسب متفاوتة ؛ فمنهم من هم أدنى إلى الحيوان ، ومنهم من هم أدنى إلى الإنسان المثالى . وفى سورة (الشمس) : « ونفسٍ وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلحَ مَنْ زكاها ، وقد خاب من دساها »

تؤثر الملكات فى غريزة حفظ النوع التى هى علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة ، فتلطف من حدتها وتهذبها بقيم أخلاقية هى قوام الحياة الاجتماعية ؛ ولـكن هــذه الملكات لا تـكف الغريزة عن العمل . ولذا فهى تخفى فعل الغريزة وراء أستار من المعانى والخيالات والأسماء الشريفـة ، إذ تسمي الجاذبية في الذكر والأنثى جمالاً ، وسلطان الغريزة حباً ؛ وتسمى

اللذة من وصف الجمال والحب ، أو من تصورها ، فنا . بيد أنها لن تستطيع منع السنة الفطرية أن تبلغ غايتها من حفظ النوع . فإذا كان تغلب الغريزة خطيئةَ آدم وحواء ، فهي خطيئة يذوق الإنسان مرغماً مُرَّ عواقبها وحلوه ، ولن ينال الغفران وإن كفَّــر عنها ما استطاع بفضائله

وفى ذلك حقائق كشفها الإنسان بخبرته الطويلة وعلمه(١)

وقد نظر الشاعر الملهم فى ماضى الإنسانية البعيد وحاضرها ، ورادت خواطره المجنحة سيرة البشر ، ثم عرض بفنه الجليل ما جنت من يانع الثمر ، فى ملحمة من كنه الشعر وسحر البيان .

(البقية فى العدد القادم) محمد توفيق السلحدار

---

(١) مصداق ذلك هو ما يلى من ترجمة جمل مختارة من كتاب « العلم والضمير » لصاحبه العالم فليكس له دانتيك :

إن غريزة الحفظ هى آلة الحياة (mécanisme) . وإذا كثر تكرار فعل عقلى استحال إلى غريزة . وإن فعلا يكثر تـكراره يدخل فى حيز العقل الباطن

ومتى تميز جسم حى وتحدد ، فانه لا يظل ثابتاً على الاحتفاظ بصفاته المميزة من دون نهاية مدة حياته ، ولولا ذلك لما وقع أى تطور ، ولـكانت الوراثة مطلقة

فان مجموع الفروق التى تميز الطفل من الهرم ، في الفرد نفسه ، عظيم جداً ؛ إذ هو جملة العادات كلها ، والذكريات كلها ، فى هذا الفرد الذى جمعها فى مدة حياته بأسرها . والتغيرات المحدودة فى مدة حياة الفرد تتجمع فى مجرى حياة الأنسال المتتابعة . والتمثيل (assimilation) والعادة والتقليد هى مميزات الحياة . والوراثة تستحيل بالتربية . والتربية تعمل فى اتجاه مضاد لاتجاه الوراثة

والانسان ، باعتباره فرداً تجنب جميع أسباب الهلاك إذ هو باق ، قد = كسب خبرة فردية بالعالم المحدق به ، خبرة انتفع منها نسله ، وكونت منطقهم ؛ وهو ، باعتباره عضواً من جماعة ، قد ثبت فى وراثته الطاعة لاصطلاحات اجتماعية تحد ميدان نشاطه الفردى ، وكان من امتداد هذه الطاعة أجيالا عديدة أن أصبحت ضرورة

إن الأصول الأخلاقية الموجهة لنشاطنا الاجتماعي هى الأثر الوراثى من الاصطلاحات التى كانت جمعيات الآباء والأجداد من القدم مؤسسة عليها . وهذه الأصول كائنة فينا للأسباب الوراثية عينها . غير أن درجة نموها تختلف لسوء الحظ فى بنى جنسنا ، ويبدو أن حكمها معادل حكم منطقنا

إن ألوفاً من الأنسال المتتابعة فى الحياة الاجتماعية أنت فى الانسان كثرة فيها سرف ، من الوجدانيات الأخلاقية ؛ وقد أصبحنا لا نذكر أن أصل هذه الوجدانيات هو اجتماع البشر ، لأنها استقرت فى ضميرنا بالتدريج

إذا تمكن منا وجدانى شديد فاننا لا نسأل أنفسنا عن أصله . ونحن لا نعمل أبداً إلا طوعاً لرغبة من ضميرنا ، وعند ما تكون هـذه الرغبة على صورة حاجة لا تتردد أبداً فى قضائها : فنحن نأكل حين نجوع

وفى الانسانية نزعة عامة إلى السعادة . وليست هذه النزعة إلا ترجمة غريزة الحفظ بلغة عاطفية . وهى فى الحقيقة ، تعريف الحياة بعينه ، وكفاح الوراثة المنتصر فى مواجهة التربية .

Science et Conscience — par Félix Le Dantec 1916

يوم من أيام دمشق الخالدة

وفاة الإمام ابن تيمية

في ٢٠ ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ

للأستاذ أحمد رمزي بك

قنصل مصر العام في سورية ولبنان

[في شهر أغسطس الماضي أم دمشق الأستاذ أحمد رمزي بك قنصل مصر العام في سورية ولبنان ، فزار فيما زار قبر الإمام ابن تيمية ، ووقف عليه مستحضراً سيرته ، مستذكراً نبوغه ، ثم كان من وحي هذه الوقفة الشاعرة هذا المقال القيم]

في سحر ذلك اليوم نعى المؤذن بمنارة القلعة شيخ الإسلام ابن تيمية وتناقل نداء ذلك الحراس على أبراجها فأذاعته المآذن من الجوامع والمساجد الأخرى ، فأصبح الناس في اليوم التالي وقد سرى هذا النبأ بينهم ، وغمرت المدينة موجة حزن وأسف عند ما سمعوا بنبأ هذا الخطب الجسيم الذي أصابهم بفقدان العالم الإمام المجاهد الفقيه الحافظ الزاهد العابد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس احمد بن تيمية .

وكان الشيخ محبوساً بالقلعة التي أمر نائبها بفتح أبوابها ، وجلس في حجرة الوفاة يتقبل العزين وقد اجتمع بها خلق من أصحاب الشيخ ورجال الدين وغيرهم من أعيان البلد . أما جماهير الشعب فقد أحاطت بالقلعة ووفدت عليها من أحياء الصالحية ومن جهات النوطة والمرج بعد أن أقفلت المدينة أسواقها .

ويطنب المؤرخون في وصف ذلك اليوم وكيف تلق الناس أخباره ، وكيف ساروا في جنازة الشيخ عشرات الآلاف ، وكيف اقتحموا باب القلعة ودخلوا زرافات على الشيخ يقبلون وجهه ، وكيف امتلأت أرجاء قلعة دمشق وضج الناس بالبكاء والنحيب عليه والثناء والدعاء والترحم له .

فقالوا إن يوم جنازة ابن تيمية كان يوماً مشهوداً لم تر مثله دمشق في تاريخها ، إلا أن يكون ذلك في أيام بني أمية حينما كانت قلب العالم المتمدين .

ولما أريد الصلاة عليه بجامع أمية خفت الجماعات إليه حتى امتلأت الرحبات والصحن وجيء بالجند لحراسة النعش ؛ ولما صلي عليه صاح صائح يقول : « هكذا تكون جنائز أهل السنة ! » وخرجت جنازته من باب الجامع إلى مقابر الصوفية مارة بباب الفراديس وباب النصر وباب الجابية والقوم حولها خاشعون .

من هذا الشيخ الذي ارتجت له الشام بأسرها ونعته مآذن مصر ، وأقيمت له كبرى جنائز أهل السنة بدمشق ، ورفعته الجماعات إلى مصاف الأبطال برغم كونه سجين السلطة الحاكمة ؟ ومن الذي ألقى الناس المناديل والعمائم على نعشه ؟ ومن كانت تخشاه الدولة في الشام ومصر ، ثم مات وعلى رأسه عمامة بيضاء بعذبات مغروزة وقد علا بعض رأسه الشيب ؟

من هذا الذي فاضت روحه وقد تمتمت شفتاه بالآية الكريمة : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فكانت نهاية ثمانين ختمة لكتاب الله بدأها عند دخوله المعتقل ، وبدأ الحادية والثمانين فأسلم الروح وهو يتلو هذه الآية الكريمة ؟

***

لا شك في أنه من أولئك الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله ، والدعوة إلى الله ، والعمل بما أمر به الله — هو صاحب دعوة قام بها مخلصاً وجهه لله وحده ، له مذهبه وآراؤه . ولسنا نعرض لها فإن ما كتب فيها كثير ، ولله الحمد ، وهو متداول ومعروف ، ولكننا نعرض لهذه الشخصية الإنسانية الفذة التي جمعت من الصفات والمزايا ما يضعها في مصاف عظماء الرجال من كل عصر

كان ابن تيمية شخصية فيها من الإيمان والقوة والإخلاص والجرأة والصلابة في الحق ما يجعله عالماً وحده . كان ابن تيمية صاحب رسالة من أولئك الذين بعثوا لينشروا بين الناس تعاليم وأفكاراً ومبادئ تهدم القديم الرث البالي ، وتصور لهم المتناقضات السائدة في أوساطهم وتدعوهم إلى كلمة سواء ، ثم ترسم لهم قيماً جديدة أخذها الشيخ من كتاب الله وسنة رسوله وهديه والعودة إلى السلف الصالح الذي كانت ترتجف لعزائمه الدنيا . واتخذ له نبراساً لا يحيد عنه هو تصفية العقيدة وتوجيهها إلى التوحيد والخضوع للذات السرمدية الأحدية التي تسيطر على هذا الكون وتقوده إلى الخير الصرف

إن تعاليم ابن تيمية خالدة بين الناس ، وهي لا تزال تشغلهم وسوف تشغلهم في المستقبل القريب والبعيد ، ولكن شخصيته وعمله وبطولته أمور لا تزال خافية على الكثيرين ، ولذلك سنحاول أن نعرض لبعض نواحيها . ويسرني أن أكون

قد أدَّيت بعض الدَّين لصاحبها ولمدينة (دمشق) التي ضمت رفاته، ولها في قلبي ونفسي أروع وأسمى مكان

ودمشق إذا افتخرتْ بتاريخها الخالد وأيامها الغر وآثارها التي تحج من مصر وغيرها لرؤيتها؛ وإذا افتخرتْ بدولها ورجالها وأبطالها، فمن حقها أن تفخر بابنها البار الإمام ابن تيمية الذي عرَّض حياته للموت من أجلها، والذي جاهد أكمل جهاد، وذاق مرارة السجن، وتحمل كيد الكائدين، فهو جدير بأن تقام باسمه مدرسة، أو ينشأ باسمه ميدان، أو أن يفرغ لذكراه يوم أو بعض يوم

١ — ابن تيمية المجاهد المرابط ضد التتار

تموج وسط مجيج الناس في دهش
من نبأة قد سرى في الحي ساريها
[من عمرية حافظ]

كانت سنة ٦٩٩ هجرية سنة مهولة على البلاد، إذ قصد التتار تحت قيادة قازان الأراضي الشامية، ولم يكن هناك بيبرس أو قلاوون ليحميها أو ليخلق من الهزيمة نصراً كما حدث قبل ذلك في عين جالوت أو مرج حمص[(١)]

كان التتار يغزون وهم على دين آبائهم؛ أما هذا العام فقد جاءوا واسم سلطانهم محمود، وهم يظهرون الإسلام ومعهم المؤذن والقاضي والشيخ والإمام، ليؤمهم في أوقات الصلاة.

جاءوا إلى الشام، وقد اختلّ أمر مصر والشام، وانضمّ فريق من أمراء البلاد إليهم، فسلمهم الجزء الشمالي من سورية بغير قتال

وصلوا النبك، واحتلوا القطيفة، وانكفأ جيش مصر والشام إلى البقاع وبعلبك، وفتحت دمشق أبوابها عدا قلعتها العتيدة التي أبت أن تستسلم

وكان ابن تيمية في التاسعة والثلاثين من عمره في حركة دائبة، لا يستقر ولا يهمد، لم يقبل أن تترك دمشق بغير أمن، فذهب مع أعيان البلد وقابلوا عاهل التتار، واحتج عليه قائلاً:

«أنت تزعم أنك مسلم، فلماذا أتيت إلينا غازياً وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت؟!»

واشتد اللجاج بينه وبين قازان وقطلوشاه وبولاى. وأتوا للوفد بطعام، فأكلوا منه إلا ابن تيمية. فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟!

قيل وطلب إليه عاهل التتار الدعاء فقال في دعائه: «اللهم إن كان عبدك محمود هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد. وإن قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره» قال هذا وقازان يؤمِّن على كلامه. ولما خرج الوفد من حضرة العاهل التترى التفت بعضهم إليه قائلاً: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك. والله لا نصحبك من هنا.

والغريب في أمره بعد هذا أن يتبرك به جند التتار ويلوذون به فيدخل دمشق وفي ركابه ثلاثمائة منهم!

كان وقتاً شديداً على الناس، فتحت فيه السجون وخرج منها الأشرار ينهبون، وامتلأت القرى بالجنود، وكثرت المصادرات وراجت الأراجيف والإشاعات؛ كل هذا والشيخ لا ينفك يرأس الوفود ويفك الأسرى ويواسي المرضى

وفي يوم من الأيام رحل جند التتار عن البلاد وانسحبوا إلى عقبة (دمر) ومنها غادروا المدينة تاركين بها أحد الأمراء من الذين انضموا إليهم نائباً عنهم. كل هذا والقلعة صامدة وابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط

وأخيراً انكشفت الغمة بقدوم عسكر مصر وفتح لهم باب الفرج مضافاً إليه باب النصر. وجاء عسكر الشام وعلى رأسه نائب دمشق جمال الدين الأفرم وكان دخولهم في تجمل زائد الوصف.

٢ — ابن تيمية يلازم عسكر الشام في تنقلاته

نفخت روح الجهاد في نفسه نشاطاً جمله يختلف عن غيره من شيوخ عصره؛ فهو بمجرد عودة عسكر دمشق لا يتركهم بل يلازمهم في تنقلاتهم وفي ركابه خلق من أهل حوران يدعو إلى الهدى؛ فمر ببعلبك والبقاع وجبال الجرد والكسروان يخطب ويهدي؛ فتاب كثيرون على يديه وحسن معتقدهم، وكان كثيرون لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

وحينما عاد أمير دمشق وقد رأى من عمل الشيخ وفتوته ما رأى أمر لأول مرة أن يتعلم الفقهاء الرمي بالنشاب وأن يستمدوا بتعلم الفروسية وطرق القتال المختلفة ليواجهوا العدو إن حضر، ولا ريب في أن للشيخ يداً في ذلك الرأي السديد.

(البقية في العدد القادم) أحمد رمزي

(١) معارك فاصلة انتصر فيها جيش مصر الاسلامية العربية على التتار

مشاركة الأدب الانجليزى في الدراسات العربية

نقلا عن « برنارد لويس »

للأستاذ عبد الوهاب الأمين

٣ — القرن التاسع عشر

(تابع)

خصص « لين » نفسه في السنين التي أعقبت عودته مباشرة لتحضير ترجمة انجليزية لكتاب « ألف ليلة وليلة » . وكانت الترجمات الأولى منه سبق أن ظهرت واكتسبت شهرة كبيرة ولكنها كانت غير دقيقة وغير علمية ، فأخذ « لين » على نفسه أن يقوم بترجمة تحتفظ في غير الوقت بمعنى وجود النص الأصلى . وقد أرفق ترجمته تلك بملاحظات وشروح عن العادات الإسلامية في العصور الوسطى وطبعت بعد ذلك منفصلة بعنوان : (الحياة العربية في العصور الوسطى) .

وكان في خلال ذلك الوقت يفكر في تصنيف قاموس عربي انجليزى واسع ، فقد كانت القواميس الأوربية السابقة للعربية — كقاموس جوليوس وفريتاغ وغيرهما — ذات نفع من بعض الوجوه ؛ غير أنها وضعت على أساس غير دقيق ، وهى ناقصة من عدة وجوه . فكانت فكرة « لين » أن يقوم بعمل منظم في القواميس العربية القديمة كتاج العروس وغيره ، وعلى أساس ذلك العمل يقوم بإعداد معجمه ، وفي يوليو سنة ١٤٢٠ سافر للمرة الثالثة إلى مصر حاملاً هذه الفكرة ، وشرع يعمل من سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٤ في القاهرة من ١٢ ساعة إلى ١٤ ساعة يومياً بصورة اعتيادية ، ونادراً ما كان يغادر داره ، وفي الأخير ، عند ما جمع المادة اللازمة من القواميس العربية — ويجب ألا ننسى أنها لم تكن قد طبعت بعد ، وأن الحصول عليها لم يكن ميسوراً — عاد إلى انجلترا وقضى السنين الخمس والعشرين الأخيرة من حياته في إكمال هذا المعجم . ولقد كانت المهمة شاقة ؛ فإن دراسة اللغة العربية — وهى في ذاتها مجهود كبير — لم تكن إلا بداية له ، فيبقى من ورائها الغربلة والتحضير والتصنيف ، أى — بالاختصار — يبقى العمل الشاق المضنى لصنع معجم منظم منسق على الطريقة الأوربية من بين المادة المشوشة التي كانت تحت يديه . ولم يكن العمل — حتى تاريخ وفاته في سنة ١٨٧٦ — قد أنجز ، غير أن الأجزاء العديدة التي كان قد نشرها تشكل جزءاً ثميناً من الدراسة الشرقية ، وهو يعتبر بصورة عامة جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من المؤونة التي يتزود بها طالبو العربية الجدد . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم بقى معجم « لين » الأول من نوعه كما أنه كان الأساس لمعظم القواميس العربية المتأخرة باللغات الأوربية .

وقد ظل « لين » طيلة حياته « أستاذ الدراسات العربية المعظم » كما نعته بذلك أحد العلماء المشتغلين بالعربية من الألمان ، وقدرته الجمعيات الثقافية في عدة عواصم أوربية .

* * *

أما « إدوارد هنرى بالمر » — وهو أحد العلماء الإنكليز المعروفين في القرن التاسع عشر — فربما كان أكثر اشتهاراً في الشرق باسم « الشيخ عبد الله » . وقد ولد في كامبردج في سنة ١٨٤٠ وتوفى في مصر سنة ١٨٨٢ وهى السنة التي قامت فيها ثورة عرابي باشا . وأظهر منذ طفولته قدرة كبيرة على تعلم اللغات فأجاد الفرنسية والإيطالية بطلاقة . ولما بلغ العشرين من عمره تعرف إلى شخص يدعى « سيد عبد الله » وهو أحد المسلمين الهنود ، وكان حينئذ محاضراً باللغة الهندستانية في جامعة كامبردج ، واكتسب منه الاهتمام بالدراسات الشرقية ؛ فقام بنشاطه المعهود بدراسة اللغات العربية والفارسية والأردية في آن واحد ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى شرع بنقل الشعر الإنجليزى إلى « لغته العربية المفضلة » وينظم بالفعل شعراً عربياً أصيلاً . وبعد ذلك مباشرة قرر أن خير طريق لتعلم اللغة العربية هو أن يتعلمها من العرب أنفسهم ، فنراه يتصل بصلة قريبة بأعضاء عديدين من الجالية العربية في انجلترا — وكان أحدهم وهو سورى من حلب يدعى « رزق الله حسون الحلبي » الذى أصبح صديقه المقرب ، والذى كان له تأثير في مؤلفات بالمر وخلقه ، فدرسه دروساً كثيرة ، وكان بالمر يحترمه كثيراً — وبعد ذلك بقليل دخل « بالمر » جامعة كامبردج وواصل دراساته الشرقية بصورة

أكثر تنظيماً ، وكان يطمح منذ زمن بعيد أن يزور بلاد العرب ويتعرف شخصياً تلك الأمة التى كان يعجب كثيراً بلغتها وآدابها . وفى سنة ١٨٦٩ أُتيحت له تلك الفرصة ؛ فى تلك السنة والسنة التى تلتها ، قام « بالمر » برحلتين إلى الشرق الأدنى ، بالنيابة عن « جمعية كشف فلسطين » ؛ وبذلك أُتيحت له الفرصة الأولى لكى يدرس عن كثب الثقافة العربية واللهجات العربية ، تلك الفرصة التى انتهزها كلها . وبعد أن عاد إلى انكلترا بقليل عُيِّنَ أستاذاً للغة العربية فى كامبردج ، وقسم عمله عدة سنين بين العمل الأكاديمى والعمل الصحافى ، وأصدر بضعة كتب مهمة . وفى سنة ١٨٨٢ ، زار مصر مرة أُخرى ، وقام برحلة جريئة على ظهور الخيل فى شبه جزيرة سيناء ، وهى تلك المنطقة التى يعرفها جيداً من رحلاته السابقة . وقد أصبح ركوب « الشيخ عبد الله » فى الصحراء يذكر الآن كما تذكر الأساطير ، وكانت خاتمته فاجعة ، فقد كان ذلك الوقت زمن اضطرابات فى الشرق الأدنى ؛ ولذلك كانت الأسفار فيه أكثر من مخاطرة اعتيادية ، فقتله قطاع الطرق من البدو فى عودته من رحلته فى الصحراء ، وانبتت تلك الحياة الحافلة عن عمر مبكر يناهز ٤٢ عاماً

ربما كان « بالمر » فريداً بين المستشرقين الأوربيين باعتبار أنه لم يقتصر على اكتساب المعلومات الأكاديمية للغة العربية فحسب ، بل تعمق فى روح الأمة العربية ولغتها . وكان من القليلين من المستشرقين الأوربيين الذين كانوا يستطيعون الكتابة باللغات الأجنبية بطلاقة ودقة ، وبعض كتاباته باللغة الأردية تقرأ فى الهند كثيراً . ويعتبر وصفه بالأردية لزيارة الشاه الإيرانى لانكلترا من الخوالد . وكان يكتب وينظم بالعربية والفارسية كلتيهما . ومن الطريف ذكره فى هذا المجال ، أنه عندما كان يكتب إلى زملائه المستشرقين خطاباته الخاصة ، يجد أنه لا يستطيع الأداء عما فى نفسه بصورة محكمة باللغة الإنكليزية ، فيندفع كاتباً بالعربية . وقد ذكر عنه أحد أصدقائه وزملائه ج . ف نيكول أستاذ اللغة العربية فى اكسفورد ما يلى :



إدورد هنرى بالمر : (الشيخ عبد الله)

« لقد كان « بالمر » غير مستقر فى رسائله التى كان يكتبها بالإنكليزية ، فكان ينفجر تحت تأثير إحساسات طارئة ، أو بقصد النقد ذاكراً بعض النثر أو النظم الفارسى أو العربى » .

ويمكن اعتبار القطعة التالية نموذجاً لشعر بالمر العربى :

ليت شعرى ، هل كفى ما قد جرى ... مذ جرى ما قد كفى من مقلتى؟

قد برى أعظمُ حزن أعظمى ... وفنى جسمىَ حاشا أصغرى

وبالرغم من قصر عمر بالمر ، فإنه خلف قائمة كبيرة من الكتب المطبوعة ، نجتزئ بذكر المهم منها فيما يلى :

لقد قام قبيل وفاته بطبع النص الكامل لديوان البهاء زهير المصرى مصحوباً بترجمة منظومة وشروح ومقدمة . وفى السنة التى تلتها نشر أجرومية للغة العربية بالإنكليزية ، وهى على خلاف الأجروميات السابقة قد وضعت على الطريقة التقليدية التى كان النحويون العرب يتبعونها ، وحاول أن يقدم النحو العربى إلى الطلاب الإنكليز بالشكل الذى كان العرب أنفسهم يدرسونه . وقد ظهر هـذا الكتاب فى طبعته الثانية موسعاً فى السنة التى تلت وفاته . وأهم من ذلك نوعاً ما كتابه عن حياة هرون الرشيد الذى قدم فيه « بالمر » صورة زاهية من العاصمة العباسية فى عصر أشهر الخلفاء ، كما أنه نشر عدة ترجمات شعرية من العربية

والفارسية ، وقاموساً فارسيًّا ، وفهرساً انتقاديًّا للمخطوطات الشرقية في كامبردج ، ووصفاً لرحلاته في شبه جزيرة الطور . وقد حزن لوفاته أصدقاؤه الكثيرون . والمعجبون به في جميع أنحاء العالم ، وظهرت مراث له فيما لا يقل عن الخمس عشرة لغة منها اللغة العربية

وهناك عالم آخر من الدرجة الأولى في الأهمية وهو « وليم رايت » ، (١٨٤٠ — ١٨٨٩) وهو ابن ضابط انكليزي في الهند ، وقد ولد في ذلك القطر ، وكانت أمه ضليعة في عدة لغات شرقية ، فشجعته على أن يعتنق الدراسات الشرقية من باكر عمره ، فدرس العربية في الجامعات الإنكليزية وفي القارة ، واشتغل مدة في ليدن على المستشرق الهولندي العظيم « راينهارت دوزي » ، وكان أستاذ العربية في لندن ودبلن وكامبردج على التعاقب . وقد كتب إلى صديق له — وكان في الثانية والعشرين من عمره — أنه اختط لنفسه خطة يهب فيها حياته لدراسة اللغة العربية . وكانت تلك الخطة طموحة ، ولكن ما أعجب ما وصل « رايت » من المدى في تحقيقها في السنين التي تعاقبت بعد ذلك !

كان من أهم أعماله للأدب العربي عملان : أحدهما طبعته لرحلة ابن جبير ، والآخر طبعه لكتاب المبرد المشهور (الكامل) واشترك مع دوزي في طبع تاريخ الأندلس للمقري . ونشر كذلك عدة نصوص عربية أخرى . ولا يزال كتابه عن النحو العربي (في مجلدين) من خيرة الكتب في هذا الموضوع ، ويستعمله جميع الطلاب المتقدمين في البلاد التي تنطق الإنكليزية

وقد خلف « رايت » على كرسي اللغة العربية في كامبردج « روبر تسون سمث » (١٨٤٦ - ١٨٩٤) ، وهو اسكوتلندي من « أبردين » ، درس العربية في جامعة تلك المدينة وفي القارة ، وسرعان ما اكتسب الشهرة ، فقدم له جماعة من المعجبين به في سنة ١٨٨١ مجموعة من الكتب والمخطوطات العربية هدية تقدير ، وقام لعدة رحلات إلى الشرق الأدنى بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٨١ ، وساح كثيراً في فلسطين ومصر وسورية ، حتى الجزيرة العربية ، حيث تغلغل إلى جدة والطائف . وتشمل كتبه المطبوعة دراسات عن : « القربى والزواج عند العرب القدماء » ، ونواحي أخرى من تاريخ العرب قبل الإسلام . وكان محرر « الموسوعة البريطانية » ؛ ولذلك فإنه يعتبر الشخص الوحيد الذي قرأ هذه الموسوعة كلها قراءة إمعان

ولقد كان ذا اطلاع عجيب ، وكثيراً ما كان يستثير استغراب أصدقائه بعمق معلوماته وتشعبها في جميع أنواع الموضوعات . ولقد قيل عنه إنه أملى محاضرة كاملة عن تاريخ انكلترا في العصور الوسطى ، وهو في شبه غيبوبة ، وعلى فراش الموت ! !

ونذكر في الأخير « سر وليم موير » (١٨١٩—١٩٠٧) وهو أحد المشتغلين بالعربية من الاسكوتلنديين ، وكان ذا سيرة حافلة كإداري في الهند وكعالم في جامعة أدنبرة . وقد نشر عدة كتب بالإنكليزية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن التاريخ الإسلامي . ولا يزال عدد من هذه الكتب يستعمل أصولاً في الجامعات الإنكليزية والهندية ، وأحقها بالذكر السيرة الكاملة لحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم : ذلك الكتاب الذي خلا من الغرض خلوًّا تاماً . ولا يزال كتابه عن تاريخ الخلافة الذي وضعه على أساس المصادر العربية — وكان الكثير منها في ذلك الحين مخطوطاً — خير الكتب في هذا الموضوع بالإنكليزية .

(بغداد) **عبد الوهاب الأمين**

من مباحث كتاب « رسوم دار الخلافة »

دَنِّيَّة القـــاضى
فى العصر العباسى

للأســـتاذ ميخائيل عواد

(تتمـة ما نشر فى العدد الماضى)

كان ببغداد قاضٍ يُعرف بالجذوعى ، واسمه محمد بن محمد ابن اسماعيل بن شداد أبو عبد الله الأنصارى (المتوفى سنة ٢٩١هـ) حكى بن الجوزى قصة وقعت للجذوعى هذا مع غلام من متقدمى غلمان الموفـق ، وكان أميرا يومذاك ، ومدار القصة دنّية الجذوعى القاضى . قال أبو الفرج : « ... فقال المتمد من هذا ؟ فقيل له الجذوعى البصرى ، قال وما إليه ؟ قالوا ليس إليه شىء ؛ فقيل مثل هذا لا ينبغى أن يكون مصروفاً فقلدوه واسطاً ؛ فقلده اسماعيل وانحدر ، فاحتاج الموفـق يوماً إلى مشاورة الحاكم فيما يشاور فى مثله ، فقال استدعوا القـاضى ، فحضر وكان قصيراً وله دنية طويلة ، فدخل في بعض الممرات ومعه غلام له ، فلقيه غلام كان للموفق ، وكان شديد التقدم عنده ، وكان مخموراً ؛ فصادفه فى مكان خال من الممر ، فوضع يده على دنيته حتى غاص رأسه بها فتركه ومضى ، فجلس الجذوعى فى مكانه ، وأقبل غلامه حتى فتقها وأخرج رأسه منهـا وثنى رداءه على رأسه وعاد إلى داره . وأحضر الشهود ، فأمرهم بتسليم الديوان ، وَرُسُل الموفـق يترددون ، وقد سترت الحال عنه حتي ذكر بعض الشهود لبعض الرسل الخبر ، فعاد إلى الموفق فأخبره بذلك ؛ فأحضر صاحب الشرطة وأمر بتجريد الغلام وحمله إلى باب دار القاضى وضربه هناك ألف سوْط . وكان والد هـذا الغلام من جلة القواد ، ومحله محلّ مَنْ لَوْ هَمّ بالعصيان لأطاعه أكثر الجيش ، فلم يقل شيئاً . وترجل القواد وصاروا إليه وقالوا مرنا بأمرك ، فقال إن الأمير الموفق أشفق عليه منى ، فمشى القواد بأسرهم مع الغلام إلى باب دار الجذوعي فدخلوا إليه وضرعوا له ، فأدخل صاحب الشرطة والغلام وقال له لا تضربه ، فقال : لا أقدم على خلاف الموفق . قال : فانى أركب إليه وأزيل ذلك عنه ، فركب فتشفع له وصفح عنه »(١)

ومن ظريف الترادف قول بديع الزمان الهمذانى حينما كتب إلى القاضى أبى القاسم على بن أحمد ، يشكو أبا بكر الحيرى « ... ثم يلبس دنّيَّته ، ليخلع دينيَّته ، ويُسوِّى طَيْلسانه ، ليحرِّف يده ولسانه ... »(٢)

وفى بعض أخبار الظراف والمتماجنين أن سعد بن ابرهيم الكاتب قال يوما لعبّادة المخنَّث : « يكون مخنث غير بغّـاء ؟ قال: نعم . ولكن لا يكون مليح : يكون مثل قاضى بلا دنية »(٣)

ولقد تقاذفها الشعراء فى هجوهم . فمن قائل فى حثّ متحكم على إعطاء رشوة إلى قاضٍ :

يا خليلى يا أبا الغيث دركْ ... نصب القاضى لكَ اليوم شركْ
طلب البرطيـل فابذلْهُ لهُ ... يسكت القاضى وإلاّ ذكركْ
لا يهـولنك دَنّيَّته ... أعطه من رشوة ماحضركْ(٤)

وعلى ذكر إعطاء الرشوة للقاضى ، وكان أمرها مشتهراً يومذاك ، قال عمارة اليمنى (المتوفى سنة ٥٦٩هـ) فى ترسُّلاتهِ : « ... وقاضى مصرك ، قدمتا على الوالى ، فأدلى القاضى بالدنية ، وأدليت أنت بالهدية ... »(٥)

وكان أبو الحسين محمد بن محمد بن لنكك البصرى مولعاً بهجو كلاب بن حمزة العقيلى أبى الهيذام اللغوى . فمن أهاجيه التى تعرض فيها للدنية قوله :

نفسى تقيك أبا الهيذام كل أذى ... إنى بكل الذى ترضاه لى راضى
ما كان أبدى فقيهاً إذظفرت به ... فـكيف ألبسته دنية القاضى(٦)

وهذا شاعر آخر من المائة الرابعة يسخر منها ؛ فيذكرها مقرونة بغراب نوح ؛ فيقول :

---

(١) المنتظم (٦ : ٤٩ طبع حيدر آباد)

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذانى (ص ١٦٨ ؛ المطبعة الكاثوليكية فى بيروت ، طبعة ثانية سنة ١٩٢١)

(٣) الديارات للشابشتى (ورقة ٨١ ب ؛ مخطوط برلين) ؛ وهذا الكتاب حققه أخى كوركيس عواد وأعده للنشر .

(٤) محاضرات الراغب الأصفهانى (١ : ١٢٥ ؛ طبعة سنة ١٢٨٧هـ)

(٥) النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية (٢ ، ٤٤٠ ، طبعة درنبرج)

(٦) معجم الأدباء (٦ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ؛ مرجليوث) ، وشرح مقامات الحريرى للشريشى (المقامة التاسعة ١ : ١٠٨ ؛ طبعة سنة ١٣١٤هـ) ، وتاج العروس (٩ : ٢٠٣) .

كأنَّ دَنِّيَّة عليها : غراب نوح بلا جناح[١]

وقال آخر :

ترى قلانسهم كالرمح طعنتها تخفي جراحتها في جنب مغرور[٢]

وقال الصابئ :

وفــوقه دنِّيَّة تذهب طوراً وتجي[٣]

وكانت بعض النساء يفزعن من رؤية القاضي بدَنِّيته ولحيته الطويلتين . فقد ذكر متز نقلاً عن الذهبي أنه : « كان ببغداد في سنة ٣٦٨ للهجرة ، قاضٍ يُعرف بأحمد بن سيَّار ، وكانت له هيئة وجثة مهولة (كذا ؛ والصواب : هائلة) ، ولحية طويلة ، فقدم إليه امرأتان ادَّعتْ إحداهما على الأخرى . فقال : ما تقولين في دعواها ؟ قالت : أفزع ؛ أيَّد الله القاضي . قال : ماذا ؟ قالت : لحية طولها ذراع ، ووجه طوله ذراع ، ودَنِّيَّة طولها ذراع ؛ فأخذتني هيبتها . فوضع القاضي دَنِّيَّته ، وغطى بكمه لحيته ؛ وقال : قد نقصتك (كذا ؛ والصواب : نقصتُ منك) ذراعين . أجيبيني عن دعوتها »[٤]

وقد بالغ الناس في درجة استهزائهم بالدنية واحتقارهم لها . فمن ذلك ما حُكِيَ عن أبي الطاهر الذهلي الذي ولي قضاء مصر في شهر ربيع الأول من سنة ٣٤٨ للهجرة أنه « كان في خلافة المطيع يلبس السَّواد ، ويضع على رأسه دَنِّيَّة طويلة تزيد على الدماغ (كذا ؛ والصواب : الذراع) ، فتحاكم إليه زوجان ؛ فبدر من المرأة في حق زوجها كلام ، فقال لها : اسكتي هذا القاضي هو أبو الطاهر ؛ متى زدت من هـذا المعنى نَزَعَ الخفَّ الذي على رأسه وقطعه على دماغك . فقال أبو الطاهر : قم يا كذا إلى لعنة الله ! من أين لك أن هذا خفٌّ ؟ ... »[١]

هذه باقة أخبار في لطائف دنية القاضي تناثرت هنا وهناك ، وكانت في جميعها مدعاة للضحك والسخرية . فكم جلبت تلك الدنيات من الأذى والألم لكثير من القضاة ! وكم جرت عليهم من الويلات ! وكم من دنية غاصت برأس صاحبها ، وكم منها تعاورتها أيدي الصبيان والرعاع وتقاذفتها أرجلهم ، وكم من قاض ترك عمله بسببها

فلا غرو أن هذا الملبوس الدخيل على العرب لم يرق لهم ، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة ، فما انفكوا يمرضون به ويستهجنون شكله حتى خف استعماله شيئاً فشيئاً على مر العصور ، ثم زال من الوجود منذ عهد بعيد

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) و (٢) محاضرات الراغب (١ : ١٢٩)

(٣) شرح مقامات الحريري للشريشي (١ : ١٠٨)

(٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (١ : ٣١٣ ؛ الترجمة العربية) نقلا عن تاريخ الاسلام للذهبي في مجلة الجمعية الآسيوية الملوكية (Jras, 1911, P. 669, Note 1.)

(١) ملحق الكندي (ص ٥٨٥ — ٥٨٦)

ومن أراد التوسع في أخبار الدنية فليراجع : فتوح البلدان للبلاذري (٤٣٤ طبع ليدن) ، ومحاضرات الراغب الأصفهاني (١ : ١٢٢) ، والمنتظم لابن الجوزي (٨ : ٢٧٥ ؛ حوادث سنة ٤٦٤ هـ) ، وخطط المقريزي (٢ : ٩٤ ؛ مطبعة النيل) ، ومعجم الثياب عند العرب لدوزي (ص ١٨٥) :

Dozy : Dictionnaire detaillé des Noms des Vetements chez les Arabes.

٢ – إلى المعترضين علينا

للأب أنستاس ماري الكرملي

٣ – حل المعضلات

إننا لم نفكر يوماً ، بل دقيقة ، بل لحظة عين ، أنّ نعت جمع التكسير يكون مفرداً مؤنثاً ، أو جمعاً على السواء ، والمطبوعات التي عنينا بنشرها – من تآليف ومقالات – مما طبع ولا نزال نتولى طبعه في المجلات والجرائد والكتب ، نشهد شهادة تفقأ في العين حصرماً ، وتذرّ فيها رماداً ، في الوقت عينه بأننا عملنا – ولا نزال نعمل – بهذه الضابطة المطردة ؛ ومن نسب إلينا الخلاف ، فهو أعمى أو يتعامى ، ولا يهمنا أمره ، إنما إنكارنا كان لما كان على أفعل فعلاء وجمعهما على فعل لا غير ؛ إذ لا يوصف الجمع المكسر والصحيح بغير هذه الصيغة الأخيرة ؛ فإنك لا تقول ألبتة : رجال سوداء ، ولا نساء سمراء ؛ ولا نهارات زهراء ، ولا ليلات بيضاء ؛ حتى أن العوام لا تنطق بها . وكذلك لا تقول : كريّات بيضاء ، ولو علقت برجليك تلك الكرى دهوراً وعصوراً ، توبة وندامة على ما سلف من أغلاطك ، وعلى ما فرطت في حياتك

فالذي أنكرناه إذن – ولا نزال ننكره – هو قولك : كريات بيضاء ... فهذا كفر نحويّ عربيّ لم تنطق به العوام ، ولا الأعاجم ولا الأروام ! !

وقال أحد المعترضين[1] المعاندين الذي لا يريد أن يهتدي إلى سواء السبيل : وبحسب قاعدة الكرملي ، لا يجوز نعت المنازل بالأخرى ولا بالأولى ، كما جاء في قول المتنبي :

هذي منازلك الأخرى نهنّئها فمن يمر على الأولى يسليها !

لكن ، هل يستطيع هذا المخالف أن يقول لنا : أين رأى كلامنا هذا ؟ أليس هذا كذباً منه وبهتاناً وافتئاتاً ؟ ! فهل في « أولى » و « أخرى » لون ، أو عيب ، أو حلية ؟ وهل يجمعان على « أول » و « أخر » بضم أولهما ؟ أفليس هذا مخالفاً للشرط الرابع ؟ فما هذا التعامي والعمى أجارنا الله منه ؟

(١) راجع مجلة المجمع العلمي العربي في ١٧ : ٢٢٣ — ٤٧٨

وأما قول الخصم : إن « المتنبي » قال :

« وبساتينك الجياد وما تحـ ـمل من سمهرية سمراء »

فالسمهرية هنا مفردة والسمراء كذلك . والمفردة هنا منكرة تدل على جمع ، فهي من قبيل وضع الواحد موضع الجمع ، وهذا معتاد في أسماء الأجناس . قال هذا علي في المخصص ١ : ٦٨ .

وقال هذا المعترض المسكين المغرور : السماع يؤيد القياس في هذا الشأن ، فمن السماع قول طرفة :

ويوم رأينا الغيم فيه كأنه سماحيق ترب وهي حمراء حرجف

قلنا : (حمراء) هنا مجاورة (لهي) ، وهي مفردة مؤنثة فحمراء صحيحة لما أشرنا إليه في الشرط الخامس

وقال المعترض أيضاً ، محاولاً بكل قواه أن يضع رأيه الجامح موضع رأي ناجح ، وذلك من العبث ، فقال : « ومن ذلك قول الفِند الزماني معاصر المهلهل »[1]

« بقيت بعده الجليلة تبكي والخدود العيطاء تدعو لحاها »

ثم قال : « هكذا جاء في روضة الأدب (ص ١٨٥) ، وشعراء النصرانية (ص ٣٤٣) » انتهى .

قلنا : وحسناً فعل حين قال : « هكذا جاء في روضة الأدب وشعراء النصرانية » ، لأن سليقته تقول له : ليس هذا العجز من العربية في شيء ، إنما هو باللغة الشويرية[2] ، ولم تكن هذه اللغة يوماً لغة فصيحة ، بل خليطاً من العربية ، والرومية ، واليونانية ، والزعفرانية ، والجلجلوتية !

زد على ذلك أن صاحب روضة الأدب اسكندر آغا أبكاريوس وهو أرمني فاسد الذوق العربي ، فهو غثاء سيل ؛ وصاحب شعراء النصرانية شيخو ، وكان رحمه الله – حاطب ليل ، على ما اشتهر عنه في سورية والعراق وديار النيل ، فوقعنا بين غثاء سيل وحاطب ليل ، لكن لا عتب على الأب شيخو ، لأنه نقل أبياته الزمانية عن الأرمني المذكور ، وهذا الرجل يكتب الأرمنية بحروف

(١) نحن لا نعلم ما نصلح من مقال المخالف : أرأيه النحوي ، أم عبارته ، أم الأعلام التي يتعرض لذكرها . إننا لم نجد أحداً من الفصحاء ذكر هذا الشاعر باسم (المهلهل) إنما ذكروه بلا لام التعريف ، إن الأب لويس شيخو ذكره باللام في شعراء النصرانية ، لكن متى كان هذا الأب – رحمه الله – حجة في العربية ؟

(٢) الأستاذ الكبير الشيخ أمين ظاهر خير الله من الشوير ، (كزير) مركز مديرية من محافظة المتن في لبنان .

عربية ، ويتوهم أنه يكتب المضرية ، وإلا فما معنى قول الفِند : « الحدود العيطاء » ، وهل كانت أو تكون أو ستكون ، أو سوف تكون ، يوماً ، الحدود عِيْطاً (بكسر العين وإسكان الياء) . فالعيطاء مؤنث الأعيط ، والأعيط على ما فى معاجم اللغة : « الطويل الرأس والعنق ، والأبى الممتنع » فما معنى العيطاء وكيف تتفق مع الحدود ؟ اللهم إلا أن يكون معناها غير هذا فى إحدى اللغات الثلاث : المالطية والوقواقية ، أو الشنقناقية ؛ لكنى أقر معترفاً إنى أجهلهن كلهن . ولعل حضرة المجادل يفهمهن ، فيفسر لنا الكلمة فى موقعها هنا !

ثم لو فرضنا أن لها معنى غير مدون فى كتب متون اللغة فليس ذلك دليلاً على أنها وردت فى كلام الشاعر الأصلى ، إذ البيت ظاهر الوضع وليس من كلام الأقدمين .

ثم لو فرضنا ثانياً أن لها معنى حسناً يناسب المقام هنا ، فإن الفند الزمانى كان من ربيعة بن نزار ، والعربية الفصحى لم تنقل إلا عن قريش ، وأسد ، وتميم ، وقيس ، وكلهم من مضر ، فكيف يستشهد بكلام من هو من ربيعة ؟

ثم لو فرضنا ثالثاً — وهو أمر قريب من المحال — أن المجادل وجد لنا عشرة أبيات شعر ممن يستشهد بكلامهم وفيها ما يثبت دعواه ، فليس ذلك بشىء ، لأن شواهده ليست من القرآن ، ولا من الأحاديث النبوية ، ولا من كلام الفصحاء ، والبلغاء ، الأثبات ، إذ لا يكون الكلام ممن يوثق به إلا إذا جاء منقولاً عمن أخذت عنهم العربية المضرية الفصحى .

ثم لو فرضنا رابعاً أنه أتانا بعشرة شواهد ممن يوثق بعربيتهم من قريش ، وأسد ، وتميم ، وقيس ، فعشرة شواهد غير كافية لوضع قاعدة .

ثم لو فرضنا خامساً أن العشرة الشواهد التى جاءنا بها من فحول شعراء مضر ومن عشرة منهم ، فإننا لا نقبل الشعر فى اتخاذ القياس ، لأن النظم يتحمل ضرائر لا يقبلها النثر ، فنحن لا نرضى إلا بنثر رصين يذكر مثل تلك الكلمة أى الكريات البيضاء ، وإلا فنصيب تلك الشواهد سلة المهملات ، أو سلة المحترقات

فليتدبر حضرة مخالفى هذه الأقوال كلمة كلمة ، ثم يتعرض للرد علىّ رداً معقولاً يفهمه الناطقون بالضاد لا أبناء الشنور فقط

وقال أيضاً المعترض : « ورد فى كتب النحاة كشروح ألفية ابن مالك ، وفى المعاجم كالقاموس والتاج : جاؤوا الجماء الغفير ، أى يقال : جاء العلماء الجماء الغفير »

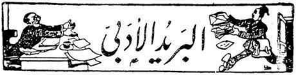
لله درك يا سيدى من عالم بارع ولغوى عظيم ! إننا لم نجد فى التآليف التى تشير إليها ما تقول . ففى أى طبعة من طبعاتها ؟ وفى أى بلد من البلدان طبعت تلك المصنفات ؟ وفى أى سنة من السنين نشرت ؟ إنك لم تقل لنا كل ذلك . أما فى الكتب التى بأيدينا فإنها لا تقول ما تدعى . وكيف يكون كلامك صحيحاً وفيه من الخطأ ما ارتعد له الملأ الأعلى ، وأهل الأرضين السفلى !

كيف يكون معنى جاءوا الجماء[1] الغفير : جاء العلماء الجماء الغفير ؟ ففى أى لغة تتكلم ، وهل تفهم ما تقول يا سيدى اللغوى القدير ! أما نحن فنخالفك ؛ فقد يقال : جاءوا الجماء الغفير من غير أن يكونوا علماء ؛ إذ قد يكونون عواماً وسوقة ، فأين وجدت ما تقول ؟ إننا نرى فى تاج العروس فى باب (جم) ما هذا نقله : (وجاءوا جماً غفيراً ، والجماء الغفير) أى (بأجمعهم) قال سيبويه : « الجماء الغفير من الأسماء التى وضعت موضع الحال ، ودخلتها اللام والألف ، كما دخلت فى العراك من قولهم : أرسلها العراك » اهـ . المقصود من إيراده وهنا كلام القاموس وكلام التاج أيضاً ؛ فالذى بين هلالين هو للقاموس وما بقى هو للتاج على ما هو مقرر فى هذا الديوان اللغوى

فيا سيدى وأستاذى العزيز ، على من تريد أن تعبر عباراتك وآراؤك ؟ وقراء هذه المجلة كلهم يفهمون ما تكتب وما تحاول أن تعبره عليهم من الأحلام والمنامات ، وما شابه هذه الترهات والخزعبلات وأضغاث الأحلام

وقال حضرة سيدى وأستاذى الجليل : « وفى شرح الزوزنى القاضى قول الحارث اليشكرى : « وله فارسية خضراء » يقول : « وله دروع فارسية خضراء » فهذا كلام لا غبار عليه ، لأن خضراء هنا مجاورة لفارسية ، وفارسية كلمة مفردة مؤنثة وإن كان معناها يدل على جمع لأنها عائدة إلى (دروع) . فراجع الشرط الخامس لتفهم سبب هذا القول ، وإن كان يجوز لك أن تقول أيضاً : « وله دروع فارسية خُضْر » وهذه أفصح من تلك

(١) ومثل الجماء : السراء ، والضراء ، والبأساء ، والفحشاء ، والسوءاء ، إلى نظائرها



١ — الحرية اللغوية !

أخذ الأب أنستاس ماري الكرملي على الأستاذ محمد مندور خطأً لغوياً وقع فيه حين قال : « وأما قصة الكراكي ، فقصة لا أثر لها فيما (عثرت به) من كتب اليونان » ؛ وذلك لأن وجه الصواب أن يقال : عثرت (عليه) لا عثرت (به) ، والعثور بالشيء غير العثور عليه . وقد أراد الأب الكرملي أن يُبيِّن للأستاذ مندور — في تضاعيف كلامه — معنى قوله : (عثرت به) ؛ فقال : « ... ولعله أراد أن يقول : فيما عثرت (عليه) من كتب اليونان ، (أقاله الله من كل عثرة) ، وأن الجواد قد يعثر » . ولكن الأستاذ لم يلتفت إلى هذه الإشارة المقصودة ؛ لذلك رأيناه في تعقيبه على كلمة الأب أنستاس يعود فيقول : « ... إنني لم أعثر بها ، ولا أقول : لم أعثر عليها — كما يقترح اللغوي الكبير الأب الكرملي — لأن المعنى الذي أريد أن أعبر عنه ، هو أنني لم أعثر بها ، أي لم أقع عليها ؛ وللأب الفاضل أن يظهر علمه — إذا أراد — في غير هذه التوافه ، وأن يتفضل بأن يترك للكاتب الحق في أن يتصرَّف في اللغة ، وفقاً للمعنى الذي في قلبه » !

ولو أن الأستاذ مندور توخى الحق في تعقيبه ، لما انساق إلى هذا الردّ ؛ إذ أنّ غرض الأب الكرملي — فيما أعلم — أن يرشد الكاتب إلى التعبير الصحيح المتفق مع اللغة التي يكتب بها ؛ وأيّ إنسان يجهل الفرق بين عثرت (به) وعثرت (عليه) [1] ؟

ثم أريد أن ألفت نظر الأستاذ إلى أن ما يسميه « توافه » ، ليس كما يتوهم : وسبب ذلك أن اللغة العربية — على الرغم من رحبها وسَعَتها — لغةٌ دقيقة ، تتميز بالعمق وبُعد الغوْر ؛ فأي اختلاف في حرف الجر الذي يجيء بعد الفعل يترتب عليه اختلاف في المعنى قد لا يفطن إليه الكاتب الذي لا يتوخى الدقة في التعبير ... وأما الحرية اللغوية التي يطالبنا بها الأستاذ ، فهي حديث خرافة ، لا أظن أحداً من المخلصين للغتنا العربية يقبل أن يسمعه ، ولا أعرف واحداً من كتاب الغرب يدّعيه لنفسه . فأنا أفهم أن تكون هناك حرية في التعبير وتخير الألفاظ ، وسوْغ أساليب جديدة ؛ وأما الحرية في اللغة نفسها بحيث يكون للكاتب الحق في أن يقول : « عثرت به » حين يكون يريد « عثرت عليه » ؛ فهذه حرية لا أفهمها ، ولا يفهمها أحد ، لأنها فوضى لغوية لا تباح إلا حين يكون لكل منا أن يخترع لغةً جديدة تلائم حريته !!

٢ — تعريب الأسماء الأعجمية

لاحظ الأب أنستاس الكرملي في كلمة الأستاذ مندور أخطاء كثيرة (وأُصرّ على تسميتها أخطاء) في تعريب بعض الأسماء الأعجمية ؛ فهو يقول مثلاً : (لوسيان) و (مارك أوريل) والصواب : (لقيانس) و (مرقس أوراليوس) . وقد وقع بين يديّ — بعد قراءة هذه اللاحظة — كتاب « المجمل في التاريخ المصري » : (وهو من تأليف بعض أساتذة التاريخ بالجامعة المصرية) ؛ فوجدت فيه أخطاء كثيرة من هذا النوع :

(١) « مختار الصحاح » : (وهو في متناول كل طالب صغيرفيما أعلم) يقول : « عثر في ثوبه يعثر بالضم عثاراً بالكسر . يقال : عثر به فرسه فسقط . وعثر عليه : اطلع .. الخ » . فثمت اختلاف كبير في المعنى ، يترتب على اختلاف حرف الجر الذي يعقب الفعل . واللغة العربية في هذا كسائر اللغات الأخرى ففي الانكليزية مثلا فرق كبير بين التعبيرات الآتية : put down ; put on ; put out ; put by ; put in ; put off ; put upon ; ...)

ثم من هو الزوزني ، وأبو الزوزني ، وجد الزوزني بجانب نصّ القرآن ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، وفصيح كلام البلغاء من العرب ؟ . أنسيت ، يا سيدي وأستاذي ، أن الزوزني قال هكذا في شرح بيت اليشكري : « يقول : ثم قابلنا بعد ذلك حجر بن أم قطام ، وكانت له « كتيبة » فارسية خضراء لمّا ركب دروعها وبيضها من الصدإ . وقيل : بل أراد : وله دروع فارسية خضراء لصدئها » ا ه

فلو قال : أراد : وله « دروع خضراء » لما جاز لكنه قال : « وله دروع فارسية خضراء » فجاورت خضراء فارسية فجاز له هذا التعبير . ولا تنس أنه قال في أول شرحه : « وكانت له « كتيبة » فارسية خضراء — فافهم يا سيدي ، وتأمّل وتدبّر وترو إلى أن تروى من ماء الحقيقة وغيرها . والله المعين

(البقية في العدد القادم) **الأب أنستاس ماري الكرملي**

أحد أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

بغداد في ٢٦ / ٩ / ١٩٤٢

فالكاتب مثلاً يسمى يوليانوس جوليان (ص ١٠١)، ويسمى كيرلس (وهو اسم شائع بمصر خاصة، فقد كان البطريرك الأسبق يسمى كيرلس الخامس): «سيرل Cyril»، ويسمى ديوقلديانوس «ديوكليشان»، ويسمى هباتيا «هباشيا»، ويسمى ثيودوسيوس «ثيودوزيوس»، وأثناسيوس «أثنازيوس» ومرقيانوس «مارسيان» ص ١٠٢، ويوستنيانس «جوستينيان» ص ١٠٤ الخ. وسبب هذه الأخطاء كلها رجوع الكاتب إلى الاسم في لغة غير لغته الأصلية — كالإنجليزية أو الفرنسية — حتى لقد سمى بعضهم سقراط «سوكراتيز»، أو «سكرات»! والواجب «أن نعود إلى لفظ الأعلام كما ينطق بها أصحابها»: (كما قال الأب الكرملي في مقاله، وكما قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية). وذلك لأن الاسم الأصلي كثيراً ما يختلف عن الاسم الموضوع باللغات الأجنبية؛ والعرب لم يترجموا الأسماء إلا عن لغتها الأصلية، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً بين الأسماء العربية التي وضعوها نقلاً عن اللغة الأصلية نفسها، والأسماء العربية التي يضعها بعض الكتاب نقلاً عن الإنكليزية أو الفرنسية. وهذا الاختلاف كثيراً ما يضيق به الطالب الذي يرجع إلى المؤلفات التاريخية العربية، مع أن الألفاظ التي يجدها في كتب العرب هي الأصح، لأنها أقرب إلى الأصل من الألفاظ التي ألف استعمالها نقلاً عن الإنكليزية والفرنسية

ومن الغريب أن بعض أساتذة الجامعة يصرون على استعمال طريقة النقل عن هاتين اللغتين في تعريبهم للأسماء الأعجمية. وإني لأذكر أن أحد أساتذتنا في الجامعة — وهو يدرّس لنا الفلسفة المسيحية — نطق باسم «أمبرواز Ambroise»، فرده طالب من بيننا قائلاً له: الاسم بالعربية هو «أمبروسيوس»؛ ولكن الأستاذ أبى أن يأخذ باللفظ العربي، مع أن الاسم في لغته الأصلية يُنطق بالسين لا بالزاي (كما يقال أيضاً فيلسوف لا فيلوزوف). ولا يفوتني أن أذكر في هذا الصدد أنني قرأت مقالاً في هذا الموضوع للفريق أمين باشا المعلوف[1]، يتضمن بعض الأصول التي يجب التزامها في تعريب الأسماء الأعجمية (عن اللاتينية أو اليونانية)؛ فإلى هذا البحث أوجه نظر الأستاذ مندور — وغيره من أساتذة الجامعة المدققين — حتى يعمّ النطق الصحيح بين الطلاب، ولا يجد أحدهم صعوبة في تذوق اللفظ العربي الذي يعثر عليه في كتب التاريخ العربية.

(مصر الجديدة) زكريا إبراهيم

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال

لم يكن لنا إلى ما قبل عشرين سنة أو ما حولها تاريخ مفصل لنهضة البلاد الوطنية يضمه كتاب، ولا سند صحيح لحركتها القومية يحتويه سفر، وإنما كان هذا التاريخ مطموس المعالم مبهم الحدود، حتى لو أراد دارس أن يقف عليه أو يلم به لأعياه السعي ولعميت عليه السبل، إذ لا يجد مهما جد في البحث وأمعن فيه إلا أنباء مبعثرة هنا وهناك بين صفحات أسفار لا يبلغها الحصر، ولو هو ظفر بشيء منها لوجده مما لا يشبع نهمه ولا يروي غليله. ومن الغريب أن يظل جهادنا لوطننا وكفاحنا في سبيل تحرير بلادنا، بغير تاريخ يبين أطواره، ويسجل أدواره، ويكشف عن نصيب كل جيل منه بما أنفق فيه من جهد وما قدم له من عمل!

وقد ظل هذا النقص بادياً في تاريخنا إلى أن قيض الله له مؤرخاً محققاً، وقانونياً كبيراً، وسياسياً محنكا، ومجاهداً مخلصاً، هو الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك. توفر حفظه الله على دراسة هذا التاريخ والبحث عن تفاريقه الممزقة بين مئات الأسفار، واستقل بأعبائه وحده يؤلف بين هذه التفاريق ويجمع أشتاتها، مُستنفداً ما وسعه من جهد في سبيل تمحيصها واستخلاص الحق منها، باذلاً في سبيل إحسان عمله كل نفيس من نفسه وماله، مما لا يكاد يستطيع فرد أن ينهض وحده به، حتى أخرج لنا في أصدق صورة وأبلغ بيان عملاً ضخماً، وعلى أنه قد ملأ مما عمل لهذا التاريخ تسعة أسفار كبار فإنه قد بقي منه أجزاء أخرى ستظهر إن شاء الله

كان الذي بعث عزيمة المؤلف على هذا العمل أنه كان يريد أن يضع «تاريخاً لفقيد الوطن العظيم مصطفى كامل على مثال كتاب (بول دشانل) عن (جامبتا) خدمة للقضية الوطنية

---

(١) نشر بمجلة «المقتطف» مرتين: (الأولى في يونية ويولية سنة ١٩١١، والثانية في فبراير سنة ١٩٣٣)

وأداء لواجب الوفاء نحو من تلقى عنه مبادئ الوطنية الأولى[١]»

ولكنه وجد أن تاريخ هذا الزعيم يستتبع « الكلام عن مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر والتطورات التي تعاقبت عليها[٢] » فجعل همه أن يدرس هذه الحركة «من بدء ظهورها إلى اليوم[٢]» ذلك بأن مصطفى كامل إنما كان « يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية سبقته أدوار وتلته أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرت على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها »[٣]

ولما أنشأ يدرس الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل لكي يصل إلى مبدأ هذه الأدوار ، وجد بعد مواصلة الدرس ومطاولة البحث أن « للروح القومية التي بدأت تظهر في أواخر القرن الثامن عشر — يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ؛ وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر »[٣]

ولم يقف به البحث عند دراسة الحركة القومية ، بل وجد أن تاريخ هذه الحركة يدعو إلى « دراسة نظم الحكم التي تخللت أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية كما أن لهذه الحركات أثراً فعالاً في تطور نظام الحكم »[٣]

ولما استوت له هذه الطريقة ووضع لها المعالم وأحكم الحدود ، أخذ يؤرخ هذه الأدوار على ما قدمنا ، ثم زاد عليها ما يلابسها وما يتصل بها من دراسة الحركات العلمية والفكرية والاقتصادية مما هو كمال لها ، وتمام عليها ، بما في ذلك من ترجمة رجال هذه الحركات كلها

ولقد كنت أود أن أفصل القول في وصف هذا العمل العظيم الذي يعد بلا ريب من أعظم الأعمال التي يقوم بها المجاهدون المخلصون في سبيل أوطانهم ، وأن أبين شيئاً مما جاء في هذا التاريخ الزاخر الذي أوفى فيه مؤلفه الجليل على غاية ليس فوقها مرتقى لهمة ، ولا وراءها مذهب لذي إحسان ، حتى يعرف القارئ الكريم مقدار هذه الملحمة الوطنية ويقف على هذا النهج الفريد من التأليف الذي يجمع بين عف القول وصدق اللهجة وبين بلاغة العبير وتقرير الحق ، ثم ما وراء ذلك من وزن الأمور بمعيار الدقة والنزاهة وهو ما اتصف به مؤلفنا الجليل سواء كان ذلك في أقواله وأفعاله أو في جهاده وتآليفه

كنت أريد ذلك كله أو بعضه ، ولكن ما أصاب الصحف في هذه الأيام من ضيق الصفحات وقلتها يضطر الكاتب إلى أن يلزم القصد في القول والإيجاز في التعبير

من أجل ذلك أراني مرغماً على الوقوف عند الكلام على هذا الجزء الذي عقدت من أجله هذه الكلمة ولكن بعبارة موجزة لا تعدو بضعة سطور . تكلم المؤلف الفاضل في هذا الجزء عن تاريخ مصر القومية مدى عشر سنوات (من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢) وهي السنوات الأولى للاحتلال وفصل القول في جميع ما جرى للبلاد في هذه الفترة من كل النواحي تفصيلاً لا يوجد مثله في كتاب . وبحسبك أنه قد جاء على غرار ما سبقه من الأجزاء من حيث التحقيق والاستيعاب ، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك ناحية من نواحي هذه الفترة من تاريخنا إلا بينها وجلاها . فجزاه الله بما قدم من عمل صالح لبلاده خير الجزاء ، ووفقه بعنايته وفضله إلى إتمام ما بقي لهذا التاريخ من أجزاء ، إنه سميع الدعاء .

(المنصورة) محمود أبو ريه

(١) ص ٣ من الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية

(٢) ص ٤ من نفس المصدر

(٣) ص ٤ من نفس المصدر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)